حملة بطرس الناسك الصليبية

في ضوء كتابات آنا كومنينا

دكتور محمد محمد مرسى الشيخ

أنّا كومنينا كاتبة ومؤرخة بيزنطية شهيرة ، وهي إبنة الأمبراطور ألكسيوس كومنين (١٠٨١-١١١٨م) من زوجته الإمبراطورة أيرين ، وأخت الأمبراطور حنا الأول كومنين (١١١٨-١١٤٣م) . ولدت آنّا في ديسمبر سنة ١٠٨٣م في الوقت الذي نجح فيه والدها في إرساء دعائم حكمه في بيزنطة فكان مولدها مبعث سعادة وبهجة لألكسيوس وزوجته باعتبارها أكبر أبنائهما ثم ما لبث ألكسيوس أن أنجب بعدها ستة من الأبناء(١) .

ولقد خطبت آنا مبكراً لقسطنطين دوكاس الذي كان وارثاً شرعياً للعرش البيزنطي قبل ولاية ألكسيوس ، فأملت آنا بذلك أن تخلف مع زوجها قسطنطين والدها الأمبراطور ألكسيوس وزوجته أيرين على العرش ، لكن الأمور ما لبثت أن تبدلت بمولد أخيها حنا John الذي ما ابث والدها أن أحله محل خطيبها في وراثة العرش ، ومن ثم شبت آنا على كره أخيها حنا خاصة وأنه لم يكن في نظرها طفلاً جذاباً إذ مالت بشرته إلى السواد فضلاً عن تعلق البيزنطيين به وإطلاقهم عليه لقب Calo-Johannes أي حنا الطيب وهو الأسم الذي ظل يحتفظ به حتى نهاية

---

(١) E.R.A. Sewter: "Introduction of the Alexiad" p. 12. (Penguin Books Britain 1969).

حياته كإمبراطور محبوب ، ومن هنا كان كره آنا لأخيها حنا . . . فلم تتحدث عنه في كتابها « الألكسياد » Alexiad إلا قليلاً ، غير أن هذا القليل أبان عن عدائها له ، ووصل الأمر بها حد أن دبرت مؤامرة للإطاحة به عندما صار امبراطوراً ، لكنها فشلت وتعرضت للنفي في مكان هادىء مريح ، وجنبها ذلك مصيراً أكثر سوءاً[١] .

وبعد فسخ خطبتها لقسطنطين تزوجت آنا من القائد نقفور برينيوس Bryennius[٢] وأنجبت منه أربعة أطفال . وعاشت معه في اتفاق وانسجام نحو أربعين عاماً إلى وفاته في سنة ١١٣٧م . وسببت وفاته إلى جانب خسارتها في والديها مرارة شديدة وأسى عظيماً ، فحينما كتبت كتابها الألكسياد كانت لا تزال كسيرة القلب تثير الرثاء والإشفاق إذ صارت امرأة اعجوزاً بائسة خائبة الأمل ، فترّكت بصماتها التعسة على كتابها ثم فارقت هذا العالم غير آسفة عليه ودون أن يشعر أحد[٣] .

ولقد رسمت آنّا في كتابها الألكسياد صورة حافلة لحياة والدها ألكسيوس حتى الساعات الأخيرة من حياته متضمناً الحديث عن ثورة الأسرة الكومنينية ووثوب ألكسيوس على العرش والصراع مع أسرة دوكاس(*) والحرب مع النورمان وغيرهم من الأعداء مثل الأتراك وانتقلت إلى الحديث عن الحرب الصليبية وعن الغزو النورماني الثاني ثم تناولت الترك والفرنجة واختتمت الكتاب بذكر مرض ألكسيوس ثم وفاته سنة ١١١٨م[٤] .

---

(١) Sewter: op. cit. p. 13.

(٢) History of Michael Attliates - (Bekker) . pp. 53-4.
وانظر كذلك : Sewter: op. cit. p. 13.

(٣) Sewter: op. cit. p. 14.

(٤) The Alexiad of Anna Commena. pp. 73-103.
(Trans. from Greek by Sewter. Penguin Books).

(*) كانت أسرة دوكاس هي التي سبقت أسرة كومنين في تولي العرش البيزنطي منذ سنة ١٠٥٩م عندما تولى قسطنطين العاشر دوكاس الأمبراطورية وآخر ملوك هذه الأسرة نقفور الثالث بوتانياتس (١٠٧٨ – ١٠٨١م) .

وعلى الرغم من شيوع طابع الأسف والحزن في كتابة آنا في الألكسياد وميلها دائماً إلى إطراء والدها ومدحه ، فإن مؤلفها يعد تاريخاً جيداً . فطريقتها القصصية مفعمة بالحياة وشخصياتها المصورة والمتحركة على مسرح الأحداث بقلمها لا يمكن نسيانها مثل آنا دلاسينا على سبيل المثال وبوهيموند وأتالوس ، فهم غالباً دواهي وفيهم عنف ، ويتضح من كتابها أن لها معرفة تامة بالطبيعة البشرية والناس فيما وراء أسوار القصر الإمبراطوري[1] .

ويتضح من كتاب آنا أنها كانت تكره الأرمن وأنها أبدت امتعاضاً من البابا جريجوري السابع ، كما أنها لم تكن منصفة للمسلمين ، فضلاً عن ازدرائها واحتقارها للاتين والغربيين عموماً وبوهيموند النورماني خصوصاً ، وهي في وصفها تبدي إعجاباً شديداً بالجمال الخلقي والجسماني لكنها لا تبدي تأثراً بجمال العمارة ، وإن كانت تغرق في وصف الآلات والأجهزة التي يخترعها حلفاء الأمبراطورية وأعداؤها على حد سواء مثل القوس والنشاب وغيرها من الأدوات ، وهو أمر يعد غريباً بالنسبة لعقلية امرأة واهتماماتها[2] .

ولقد تعلمت آنا تعليماً دينياً ونشئت تنشئة حسنة وظهرت في كتاباتها مفاهيم دينية متحفظة وارتكزت عقيدتها المسيحية على الاقتناع والفهم وخلت من خرافات العصور الوسطى واقتبست من كتابها المقدس كثيراً من النصوص غير التقليدية في مواضع مختلفة واهتمت أيضاً بدراسة العلم بمعناه الدقيق[3] فدرست الطب وألمت بالفلك وعرفت التنجيم .

وعلى الرغم من ذلك فلآنا كثير من العيوب والزلات ، فمعرفتها بالجغرافيا كانت غير كافية وصادفتها مصاعب جمة في تحديد التواريخ وتعاصر الوقائع

---

(١) Sewter: op. cit. p. 14.

(٢) Ibid. p. 15.

(٣) ستيفن رانسمان : الحضارة البيزنطية ص ١٥٣ ، ص ٢٨٥ (ترجمة جاويد) .

والشخصيات ، فمالت إلى تجنب ضبط التواريخ أحياناً وتحديدها بدقة ، وغلب على رواياتها في مواضع كثيرة التناقض والتعارض واعترى نصها كثير من الثغرات والفجوات ؛ ومشاهد المعارك الحربية أقل كتاباتها روعة ، وترادف كلماتها وجملها بغير رابط ، ولديها كثير من الأسئلة غير مجاب عليها ، وفضلا عن ذلك افتقرت كتاباتها للخفة والدعابة لأنها برعت في الحقيقة في استثارة الدموع أكثر من إمكانها إثارة الضحكات [1] .

وتراوحت آراء الكتاب المحدثين في كتاب « الألكسياد » بين النقد والإطراء إذ تحدث إدوارد جيبون في المجلد التاسع من كتابه « اضمحلال وسقوط الأمبراطورية » عن الألكسياد بقوله : « لقد صورت الإبنة المحببة آنا حياة والدها الإمبراطور ألكسيوس متأثرة في ذلك بالملاحظة الدقيقة لشخصه ، مدفوعة بحماسة طاغية لتخليد فضائله . . . وبجانب معرفتها الشخصية وتجاربها فقد اهتمت باستقصاء أحاديث معظم الكتاب المتمرسين العظام وخطبهم وكتاباتهم وفحص ذلك كله . . . أي أن الحقيقة والحقيقة الكاملة كانت هي الهدف الأسمى والأهم لديها . . . لكنها بدلاً من أن يشد اهتمامها ماينبغي من روعة السرد القصصي والإبداع الفني ، تطل علينا في كل صفحة من الكتاب تصنعات بلاغية ونتفاً علمية غريبة لتؤكد تفاهة تلك المؤلفة الأنثى . . . فقد اختفى خلق ألكسيوس وسط حشد غامض من الفضائل وسلسلة لا نهائية من المديح والإطراء ، والاعتذار عن أخطائه والدفاع عنها . . . »

وإذا كان هذا هو رأي جيبون في كتاب الألكسياد ، فإن النقاد المحدثين كانوا أقل عنفاً في الحكم وأقل إيجازاً في الوصف ، كما أنهم عبروا عن إحترامهم وإكبارهم لذكاء الأميرة آنا وفطنتها وحسن تعليمها وثقافتها ، إذ يؤكد رانسمان أن المؤرخين المحدثين ليس لديهم سوى الاستعداد الكامل للحط من شأن مؤلفها وتحقيره ويشير أوسترو جورسكي إلى الألكسياد على أنه « مصدر تاريخي على أعلى درجة من

---

(١) Sewter: op. cit. p. 16.

الأهمية » . ويقول ڤاسيلييف أن الألكسياد « له أهمية كبيرة من وجهة النظر التاريخية البحتة » . وستبقى ذكرياتها — لدى كرومبوجر Krum bocher — « واحدة من أبرز المؤلفات الخاصة بالتاريخ الرسمي لإغريق العصور الوسطى »[1] . وتعد الأميرة آنّا لدى مارشال Marshall من « أبرز النماذج بين المؤرخين البيزنطيين »[2] . وكانت السيدة هسي Hussey أكثر رقة وعطفاً فأشارت إلى مؤلف آنا على أنه « تجربة شخصية ناضجة بارزة » ، وأنها تاج مجتمع غير عادي في صقله وتهذيبه .

ويتضح من ذلك أنه لا يستطيع أحد أن ينكر أن آنا ليست إلا ابنة مولعة ولعاً شديداً بشئون والدها بل إن هناك ميلا الآن لتبرئتها من تعمد التزييف واعتبار أخطائها ليست إلا أخطاء اللامبالاة . والواقع أن كتاب الألكسياد في رأي مترجمه سيوتر E.R.A. Sewter[3] « يعتبر كتاباً بارزاً يمكن قراءته والاستمتاع به » وهو في رأيه أيضاً أكثر صقلاً من غيره من كتب التاريخ ، كما أنه أكثر حياة وتأثيراً من أي كتاب انتجه معاصروها اللاتين في الغرب[4] .

ولا شك أن رواية آنا كومنينا عن حملة بطرس الناسك الصليبية — أو ما يعرف بحملة العامة — تعكس معظم الجوانب التي لاحظها الكتاب والمؤرخون في كتاب الألكسياد وتبلورها تماماً ، فقد كانت آنا تهدف أول ما تهدف إلى رسم صورة لوالدها تسمو به فوق النقد والمآخذ وتبرر له الوقوع في الأخطاء وتلتمس له العذر فيها ، فضلاً عن إظهار كرهها للغربيين بصفة عامة والنورمان بصفة خاصة وعدم إنصافها المسلمين والاتجاه بالأحداث إلى مسار يظهر والدها بصورة لامعة ليس لها ظلال .

---

(۱) Geschichte der Byzantinishen Litteratur p. 276.

(۲) Baynes and Moss (eds.) Byzantium, p. 2?2.

(۳) اعتمدنا على نسخة « الألكسياد » التي نقلها Sewter من اليونانية إلى الإنجليزية والتي صدرت عن : Penguin Books سنة ۱۹٦۹ .

(٤) Sewter: op. cit. p. 16.

فالمعروف أن بطرس الناسك كان أحد دعاة الحرب الصليبية في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي (الخامس الهجري) ، وهو الرجل الذي نجح في إثارة مشاعر طبقة العامة في غرب أوربا فجعل آلاف العبيد والأقنان والرعاع يندفعون في حماسة بالغة نحو الشرق بغية الوصول إلى الأراضي المقدسة المسيحية . وتذكر النصوص أن بطرس الناسك كان رجلاً غريباً في مظهره وملبسه يرتدي الرث من الثياب ويكتفي بالفتات من الخبز ويمشي عاري القدمين ويركب حماراً أعرج[١] ، ويتنقل من مكان إلى مكان داعياً للحرب الصليبية باذلاً جهداً فوق العادة للتأثير على سامعيه . ويبدو أن هيئته الغريبة بالإضافة إلى فصاحة لسانه وروعة بيانه وقدرته على التأثير في الناس قد جعلت منه شخصية خطيرة في تلك المرحلة ، وجعلت جماهير العامة والدهماء يندفعون في غير تبصر نحو الشرق[٢] . كما قيل أنه حاول أن يحج إلى بيت المقدس لكنه تعرض لبعض المتاعب من قبل الأتراك فعاد أدراجه دون أن يحقق أمنيته فكان لذلك أثر سيء في نفسه ووجد في الدعوة للحملة الصليبية شفاء لغلته[٣] .

وعلى أثر الحملة الدعائية التي شنها بطرس الناسك ، ونتيجة لتنقلاته بين أنحاء الغرب الأوربي داعياً مستنفراً ، اجتمع حوله عدد ضخم من الأتباع أغلبهم من الأقنان ورقيق الأرض وجموع العامة ، فزحف بهم عبر هنغاريا إلى القسطنطينية بعد رحلة طويلة ارتكب خلالها أتباعه كثيراً من أعمال العنف تجاه سكان القرى المسيحية الواقعة على الطريق ، كما قاموا بمذبحة بشرية رهيبة في أهالي إحدى القرى المجرية (الهنغارية) راح ضحيتها نحو أربعة آلاف من المسيحيين الآمنين[٤] . .

---

(١) Runciman: A History of the Crusades. I. p. 126.

(٢) Runciman: op. cit. I. p. 113.

(٣) عن تفاصيل حياة بطرس أنظر :

Hagenmeger: Le Vrai et les Faux sur Pierre l'Hermite. (trans. by Furcy Raynaud). pp. 17-63.

(٤) Guibert, in Permoud, The Crusades. pp. 31-4.(trans. by Meleod, London 1962).

والواقع أن ألبرت الأخيني قد وصف بطرس الناسك أحياناً بأنه متعطش للانتقام على حين أشار في مواضع أخرى إلى ميله إلى السلام والراجح أن الراوي ظن أن القسوة تعتبر من المزايا التي يتصف بها بطرس[١] . جرى كل ذلك قبل أن يتجمع أتباع بطرس عند أسوار القسطنطينية ، وقبل أن يعبروا إلى آسيا الصغرى حيث الحرب المتوقعة مع الأتراك المسلمين ، وهي الحرب التي انتهت بكارثة لجيش بطرس ، إذ حوله الأتراك إلى كومة من الأشلاء قرب نيقية ، ولم ينج بطرس نفسه في نفر قليل من أتباعه إلا بشق الأنفس فحملوا إلى القسطنطينية في حالة سيئة[٢] .

أما عن رواية آنا كومنينا عن حملة بطرس الناسك فنوجزها فيما يلي :

« كان دوي الخطب التبشيرية التي ألقاها بطرس قد انتشر في كافة الأنحاء ، وكان أول من لبى النداء هو جو فري الذي سارع ببيع أرضه واتخذ الطريق إلى بيت المقدس . . . وبعد أن قام بطرس بحملته الدعائية التبشيرية كان أول من عبر ممرات لومبارديا ومعه نحو ثمانين ألف من المشاة ومائة ألف من الفرسان ، ووصل إلى العاصمة (القسطنطينية) عن طريق هنغاريا[٣] . . . ونظراً لعلم الإمبراطور (ألكسيوس كومنين ، بما عاناه بطرس على أيدي الترك من قبل ، فقد نصحه بالتريث وانتظار وصول الكونتات الآخرين ، لكن بطرس رفض هذه النصيحة ثقة في كثرة عدد أتباعه ومرافقيه ، فعبر بحر مرمرة وأقام معسكراً قرب مكان يسمى هيلينوبوليس Helenopolis [٤] . وأخيراً التحق به نحو عشرة آلاف محارب نورماني ، ولكنهم عادوا فانفصلوا عنه ، وقاموا بنهب ضواحي مدينة نيقية وإتلافها سالكين مع السكان سلوك القسوة

---

(١) أنظر : Albert of Aix, 11, 7, 8 pp. 250-8.

(٢) Gesta Francorum, 1, 2, pp. 6-12.

(٣) Anna Comnena: The Alexiad. p. 311. (trans. by Sewter. Penguin Books).

(٤) Anna Comnena: op. cit. p. 311.

البالغة والوحشية ، فقد قاموا بتقطيع بعض الأطفال الصغار إرباً وربط بعضهم على قطع من الخشب وشيهم على النار ، أما الكبار فقد أخضعوهم لشتى أنواع التعذيب[١] . . . وكان رد فعل السلطان أن أرسل بعض إيلخاناته على رأس قوة كبيرة لتتعامل مع أولئك المغيرين النورمان ، ونجحت هذه القوة في ضرب رقاب كثير من رجالهم وأخذ الباقي أسرى ، وفي نفس الوقت خطط الإيلخانات للتعامل مع بقية جيش بطرس فوضعوا كمائن في أماكن مناسبة آملين أن يقع العدو في الفخ وهم في الطريق إلى نيقية ، ولأنهم كانوا يعرفون حب أولئك الغزاة للمال فقد جندوا اثنين من أقوى الرجال عزماً وبعثوا بهما إلى معسكر بطرس ليعلنا أن النورمان قد استولوا على نيقية وأنهم يتقاسمون الغنائم التي حصلوا عليها من المدينة[٢] ، وكان لهذه القصة فعل السحر على رجال بطرس فقد ماجوا واضطربوا لسماع كلمة « التقاسم » وكلمة « المال » وبدون أي تردد بدأوا يسلكون الطريق المؤدية إلى نيقية في هرج ومرج كاملين وبدون أي التفات أو انتباه أو نظام عسكري أو استعداد منظم لرجال ذاهبين إلى الحرب . وكما قلت من قبل فإن العنصر اللاتيني يتميز في كل العصور بجشع غير عادي للثروة والمال ، ولكن اللاتين إذا خططوا لغزو بلد فليس هناك قوة يمكن أن تكبح جماحهم ، ولذلك فقد رحلوا في اضطراب ودون حذر أو تنظيم أو احتراس[٣] . وقرب الدراكون Drakon وقع جيش بطرس فعلا في كمين الأتراك فتعرض التعساء لمذبحة هائلة . ولكثرة من قتل من اللاتين والنورمان بسيوف الإسماعيلية جمعت بقايا الجثث المبعثرة في كل جانب في كومة هائلة ، وسوف لا أقول قمة أو تلاً أو هضبة وإنما أقول جبلاً كبيراً له ارتفاع وعمق واتساع هائل ، فلك أن تتصور قدر كتل العظام المكدسة التي جمعها الترك وكوموها . وفي أعقاب تلك المذبحة استطاع بطرس مع فئة قليلة من

(١) Anna Comnena: op. cit. p. 311.

(٢) Ibid. p. 312.

(٣) Ibid. p. 312.

رجاله النجاة والعودة إلى هيلينوبوليس ، ونظراً لرغبة الترك في القبض عليه ثانية فقد وضعوا له كميناً ولكن الأمبراطور (ألكسيوس) الذي كان قد علم بذلك كما سمع أنباء الكارثة ، وجد أن أسر بطرس سيكون أمراً شنيعاً ، فأرسل القائد قسطنطين كاتاكالون Catacalon على رأس قوة عسكرية عبر المضايق لمساعدة بطرس[1] ، ونتيجة لمبادرة هذا القائد أمكن التقاط بطرس ومرافقيه وإحضارهم سالمين إلى ألكسيوس الذي ذكّر بطرس بحمقه منذ البداية ، وأنه سبب هذه الكارثة لعدم سماعه نصح الإمبراطور . . . وبالغطرسة اللاتينية المعهودة برر بطرس مسئوليته عن هذه الكارثة بنسبتها إلى رجاله ولومهم لأنهم على حد قوله لم يكونوا مطيعين وانساقوا وراء أهوائهم الشخصية وأطلق عليهم لقب « لصوص » وقطاع طرق ووصمهم أنهم لا يستحقون الخروج من أجل المسيح أو يتعبدوا في كنيسة المقدسة العظمى (في بيت المقدس)[2] » .

– وأول ما يواجهنا في هذا النص قول الكاتبة أن بطرس الناسك كان على رأس نحو ثمانين ألفاً من المشاة ومائة ألف من الفرسان . وهي أرقام فيها مبالغة لدرجة كبيرة فضلاً عما يبدو في هذه الأرقام من عدم التناسق والتوافق . فعادة مايكون أعداد المشاة أو الرجالة أكثر من أعداد الفرسان ، نظراً لأنه ليس من السهل في العصور الوسطى إعداد الفارس المدرب الذي يمتطي صهوة الجواد ، إلا بعد تدريب عنيف ومشقة بالغة ، وقد يستغرق إعداده سنوات طويلة[3] ، بينما يمكن حشد آلاف من المشاة دون مشقة تذكر . وعلى الرغم من أن الكاتبة كانت معاصرة لهذه الحملة وقريبة – بحكم منزلتها ونسبها – من مصادر الأخبار والمعلومات ، إلا أنها فيما يبدو لم تكن لتلقي بالاً أو اهتماماً لتقدير الأعداد الصحيحة أو الأرقام

(١) Anna Comnena: op. cit. p. 313.

(٢) Ibid. p. 313.

(٣) Feudal Institutions and Ideals. by Cantor in the Medieval World. pp. 173-92.
كوبلاند وفينوجرادوف : الإقطاع والعصور الوسطى في غرب أوروبا ص ٣١ (ترجمة زيادة) .

الدقيقة وربما انصرف كل همها لإظهار ضخامة الحملة وكثرة رجالها لتصوير مدى الفشل الذي آلت إليه .

والواقع أن التفصيلات الأساسية عن حملة بطرس الناسك ووالتر المفلس قدمها عـــدد من المعاصرين منهم ألبرت الأخيني Albert of Aix [1] الذي كتب مؤلفه حوالي سنة ١١٣٠م . ولكن دقته لا زالت موضع مناقشة أيضاً على الرغم من أنه استقى معلوماته من شاهد عيان حضر تلك الحرب وشارك فيها . ويشترك ألبرت مع آنا في أن كليهما لا يهتم بالأرقام وإعداد الجيوش ولا يعتد كثيراً بما ذكر لديهما من أعداد فضلاً عن أن سلوك بطرس الناسك لم يلق لديه إلا كل إطراء وتقريظ لإظهاره في صورة براقة مرحة بصرف النظر عن الدقة أو مدى مطابقة ذلك للحقيقة [2] . ومع ذلك فقد قدّر ألبرت جيش بطرس تقديراً يقل كثيراً عن تقدير آنا ، فذهب إلى أنه تألف من نحو أربعين ألف شخص ، وأن بطرس فقد حوالي ربع هذا الجيش في طريقه إلى القسطنطينية ، إذ لم ينج إلا ثلاثة أرباع هذا الجيش أي نحو ثلاثين ألف شخص ليصلوا إلى أدرنة في طريقهم إلى العاصمة البيزنطية [3] . بينما هلك الجانب الأعظم من الحملة الشعبية الألمانية أثناء اجتيازهم الأراضي المجرية ونجا بعض قادتها إما بالاستسلام للقوات المجرية أو بالفرار بفضل سرعة جيادهم [4] .

وهناك أيضاً ملاحظة مختصرة عن هذه الحملة وأعداد قواتها في تاريخ باري : Chronicle of Bari. p. 147 ، فضلاً عما ذكره صاحب كتاب « أعمال الفرنجة

---

(١) in the "Liber Christianea Expeditions pro Exptione, Emundatione et Restitutione Sanctae Hierosolymitanae Ecclesiae of Albert of Aix (Aachen)".

(٢) أنظر : Sybel: Geschichte des ersten Hreuzzuges,
Hagenmeyer: Le Vrai et le Faux sur Pierre l'Hermite especially pp. 966.
Runciman: A hist. of the Crusades. I. p. 121, p. 331.

(٣) Albert of Aix, 1, 9-12, pp. 278-82.

(٤) Duncalf: Clermont to Constantinople in Hist. of Crusades Edit. Setton and Baldwin (Pens. 1958) p. 262, 175.

وحجاج بيت المقدس » ، الذي استقى معلوماته بلا شك من شاهد عيان قابلة في القسطنطينية لا سيما بالنسبة لتوضيح حجم الكارثة التي نزلت بجيش بطرس وموقف الإمبراطور البيزنطي من بطرس نفسة[1] .

ومن مجموع ذلك يتضح أن الأعداد التي قدرتها آنا لجيش بطرس ووالتر فيها مبالغة ظاهرة إذ لم يزدعن نحو خمسة عشر ألف محارب جلهم من الفلاحين والأقنان ورقيق الأرض بالإضافة إلى أعداد من الفرسان والمحاربين ولفيف من النبلاء والقادة من مختلف بلاد غرب أوربا لا سيما فرنسا وألمانيا وإيطاليا[2] . ولا بد وأن آنا قد ركنت في تقدير ما ذكرته من أرقام إلى مجرد الروايات الشعبية المتواترة دون الرجوع إلى مصدر رسمي في ذلك والاستنتاج من حجم الخسائر التي أنزلوها بالقرى البيزنطية وضواحي القسطنطينية للتزود بالمؤن والزاد ، حتى بدو أكبر من حجمهم بكثير وزادوا في نظر شهود العيان عن عددهم الحقيقي ورقمهم الفعلي ، كما أنها قد تكون وضعت تقديراتها على أساس عدد الزعماء والقادة المشتركين في الحملة من من فرنسا وألمانيا[3] .

وقد أشارت آنا في نصها إلى أنه « نظراً لعلم الإمبراطور بما عاناه بطرس على أيدي الترك من قبل ، فقد نصحه الإمبراطور بالتريث وانتظار وصول الكونتات الآخرين لكن بطرس رفض هذه النصيحة ثقة في كثرة أتباعه ومرافقيه . . » . وهذه الإشارة غير دقيقة على الإطلاق . ففي شقها الأول الخاص بمعاناة بطرس على أيدي

---

(١) Gesta Francorum, 1, 2 p. 6.

(٢) Hagenmeyer: Le Vrai et les Faux sur Pierre l'Hermite. pp. 127-51, Chalandon: Essai sur le Règne d'Alexis Comnène pp. 57-9.

(٣) Albert of Aix, 1, p. 16-22.
Gesta Francorum, 1, 2, pp. 6-12.
Anna Comnena: The Alexiad. pp. 311-12.
وعن تفصيلات أكثر عن بعض زعماء هذه الحملة أنظر :
Z. oldenbourg: The Crusades, trans. by Anne Carter p. 82 (N.Y. 1966).

الترك من قبل أخذت الكاتبة بما تواتر من روايات أضفت على بطرس صفات الشجاعة وخلعت عليه أثواب المجد وصورته بصورة المسيحي الحق الذي عانى في سبيل الحج إلى بيت المقدس ما عانى وزاده ذلك إصراراً على العودة إلى بيت المقدس شاهراً السلاح . وكانت هذه الروايات قد ذهبت إلى أن بطرس قد عانى من قبل على أيدي الأتراك المسلمين وهو في طريقه لأداء الحج فعاد أدراجه دون أن يحقق أمنيته وبالغت الروايات في ذلك كثيراً ربما لتبرر الحماسة والاندفاع الذين اتصف بهما بطرس في دعوته للحرب الصليبية وخطبه الدعائية الرنانة التي ألهبت حماسة العامة وجموع الدهماء بغرب أوربا[1] .

أما بالنسبة للواقع التاريخي فإننا لم نقف على ما يؤيد ما ذهبت إليه الكاتبة وما تواتر من أنباء عن تعرض بطرس لمتاعب في طريقه إلى الأراضي المقدسة المسيحية . فمن ناحية لم تجر العادة أن يحول المسلمون بين المسيحيين والحج إلى الأراضي المقدسة المسيحية ولم نسمع عن قيام السلطات الإسلامية في أي وقت باضطهاد المسيحيين أو منعهم من القيام بشعائرهم الدينية ومن بينها زيارة البيت المقدس باستثناء الفترة التي حكمها الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله الفاطمي الذي عانى من شذوذه أحياناً المسيحيون[2] مثلما عانى المسلمون لا نجد ما يشير إلى تعرض المسلمين لأي حاج يقصد الأراضي المقدسة المسيحية بالأذى ، وكانت فترة حكم الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي فترة استثنائية في التاريخ انتهت معالمها باختفاء الحاكم نفسه وعادت الأمور إلى نصابها[3] ، وأعيد بناء ما أمر الحاكم بهدمه من الكنائس المسيحية وعاد التسامح يظلل المنطقة وعاد المسيحيون إلى أداء شعائرهم وفرائضهم .

وإن صح ما تعرض له بطرس من متاعب في طريقه إلى بيت المقدس ، فلا بد

---

(١) Runciman: op. cit. 1. p. 115.

(٢) أنظر : تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي ص ١٩٤ .

(٣) نفس المرجع ص ٢٣٢ .

وأن هذا قد كان من قبيل الحوادث الفردية التي كان يتعرض لها المسافرون على أيدي اللصوص وقطاع الطرق بصرف النظر عن عقائد أولئك المسافرين أو شخصياتهم . وكثيراً ما تعرض التجار والمسافرون في العصور الوسطى لمثل هذه الإغارات التي تجردهم أحياناً من أموالهم ومتاعهم[1] . . ولا بد أن بطرس الناسك كان ضحية إحدى هذه الإغارات التي فسرها على أنها موجهة ضد الحجاج المسيحيين إلى الأراضي المقدسة المسيحية بصفة خاصة دون ترو أو تبصر . ومن ناحية أخرى ليس بخاف علينا أنه منذ وطئت أقدام الأتراك السلاجقة أرض آسيا الصغرى وهم في عراك مع بيزنطية يقتطعون دائماً من أملاكها ، ويوطدون أقدامهم في آراض تابعة لها[2] ، ونتيجة لهذا العداء الطويل والحروب المستمرة في آسيا الصغرى لقى كثير من عابري السبيل في تلك البلاد حتفهم بما فيهم بطبيعة الحال بعض زوار بيت المقدس وغيرهم من المسافرين أياً كانت وجهتهم أو جنسياتهم أو عقائدهم[3] . فالقضية إذن ليست قضية منع حاج من أداء الحج وإنما هي قضية حرب وسلام وعلاقات متشابكة بين المسلمين والبيزنطيين في الأراضي المتجاورة للفريقين من بلاد الشرق ، وهي قضية تحيط بها ملابسات كثيرة وتدخل فيها عناصر أخرى ليس لعصبية السلالة أو الدين دخل فيها .

أما الشق الآخر من إشارة الكاتبة آنا كومنينا والمتعلق بالنصيحة التي قدمها الإمبراطور ألكسيوس لبطرس بالتريث انتظاراً لوصول بقية الكونتات في الحملة النظامية . . . فواضح أن هذه الكاتبة تغالط مغالطة ظاهرة وتحاول أن تلقي التبعة كلها على بطرس الناسك وتحمله المسئولية كاملة عن ضياع جيشه وهزيمته وتبرىء والدها الإمبراطور من ذلك كله[4] ؛ مدعية أنه نصح بطرس بالتريث وعدم التسرع

---

١) أنظر : نورمان بينز : الأمبراطورية البيزنطية ص ٣٧٧-٣٧٨ (تعريب مؤنس وزايد) .

٢) Grousset: Histoire de l'Armenie, p. 629.
Camb. Med. Hist. IV. p. 598.

٣) أنظر : تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي ص ٣٧٨ .

٤) أنظر نص العبارة في الألكسياد . (trans. Sewter). p. 313

تي محاربة الترك ولكن بطرس هو الذي ركب رأسه وأصر على العبور للقاء المسلمين . والواقع أن القرائن كلها تؤكد أن الإمبراطور البيزنطي لم يكن متحمساً لبقاء جيش بطرس بالقرب من القسطنطينية أو في الأراضي البيزنطية وذلك نظراً لما أحدثه ذلك الجيش من نهب وسلب وإتلاف للمزارع والبساتين والحقول[1] ، للحصول على ما يحتاج من مؤن وزاد وعتاد ، ولقد حدث خلال تقدم هذا الجيش في كل من ألمانيا وهنغاريا أن ارتكب جنوده كثيراً من الجرائم وسلبوا ونهبوا وأحرقوا وسبوا وأنزلوا بأهالي القرى الآمنة شتى ألوان العذاب على الرغم من أنهم كانوا مسيحيين مثلهم ، ولم يكن يحرك الجانب الأعظم من هذه الجموع الصليبية سوى النهم إلى المغانم والأسلاب أو على حد قول مؤرخ معاصر هو جيبرت Guibert عن هؤلاء أنهم « يحدو بعضهم الإيمان الصادق بينما تداغب الأوهام والمغريات نفوس البعض الآخر »[2] ، ولا يشغل بال الأكثرية منهم إلا ملء بطونهم بطريق مشروع أو غير مشروع دون التقيد بقيم أو مبادىء . . . فأغلبية جنود تلك الحملة كانوا من الرعاع وطبقة العامة والأقنان ورقيق الأرض والخارجين على القانون[3] ، والهاربين من الأحكام الذين وجدوا في هذه الدعوة خلاصاً من أوضاع سيئة بالنسبة لهم في الغرب وحلاً لكثير من مشاكلهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فضلا عن النواحي الدينية . حقيقة حرك فريقاً منهم الحماسة الدينية والاندفاع لمحاربة المسلمين كرهاً لهم وبغضاً للإسلام ولكن الأكثرية من هذا الجيش لم يكن تحركهم مثل هذه البواعث بقدر ما كانوا يفكرون في المغانم والأسلاب[4] .

---

(١) Guibert, in Permoud: op. cit. pp. 31-32.

(٢) Guibert, Quoted. in Permoud: The Crusades. pp. 27-8. (trans. by Meloed. London 1962).

وانظر أيضاً : عبد القادر اليوسف : علاقات بين الشرق والغرب ، ص ٤٩ .

(٣) Z. Oldenbourg: The Crusades (trans. by Anne Carter N.Y. 1966). p. 82.

(٤) Runciman: A hist. of the Crusades. I. p. 128.

نخلص من ذلك إلى أن الإمبراطور ألكسيوس لم يكن راغباً في بقاء جيش بطرس على الأراضي البيزنطية لما أحدثوه من الخراب والدمار بالقرى البيزنطية الآمنة ، ولم يكن لهذا الإمبراطور أن يطلب بقاء جيش بطرس حتى وصول الحملة النظامية الأخرى أي بقاء هؤلاء الرعاع في الأراضي البيزنطية وقتاً أطول ، فالدلائل كلها تشير إلى أنه هو الذي تعجل عبور هذا الجيش إلى الجانب الآسيوي للقاء الترك وللحصول على مؤنهم وزادهم من قرى المسلمين وليس من القرى البيزنطـية الآمنة . ولا يمكن أن يصدق أحد أن الإمبراطور قد أبدى أي حرص على بقاء جموع العامة والدهماء بالقرب من عاصمته يعيثون في الأرض الفساد ويعكرون صفو الآمنين ، ولقد أشار المؤرخ المجهول إلى أن « ألكسيوس ظل على عداته لبطرس »[1] بعد الكارثة أي أنه لم يكن راضياً عنه قبل عبوره إلى آسيا الصغرى ، والأصح أن يتعجل الإمبراطور عبور هذه الحملة إلى الجانب الآخر خلاصاً من متاعبها ودرءاً لشرورها[2] . ولا نصدق أن يكون قد نصح بطرس بالتريث وعدم العبور كما أومأت الكاتبة بل إن حرصها على تبرئة والدها من تحمل مسئولية القضاء على ذلك الجيش جعلها تغالط وتذهب هذا المذهب . . إذ لم يبق جيش بطرس بجوار أسوار القسطنطينية سوى خمسة أيام ، فقد كان وصوله أول يوم من آب (أغسطس) سنة ١٠٩٦م وكان بدء عبوره في ٦ آب (أغسطس) أي بعد خمسة أيام فقط[3] . ولقد حسم المؤرخ المعاصر جيبرت هذه القضية فأومأ إلى أن الإمبراطور قد نصح بطرس في البداية بالتريث ولكنه عاد فحثه على العبور بعد أن سلك أتباعه سلوكهم السيء على الأراضي البيزنطية فقال جيبرت : « ومع ذلك فلم يكن كرم اليونانيين ولا نصيحة الإمبراطور بكافية لردعهم عن التهور والطيش إذ سلكوا سلوكاً في منتهى الغرابة والصلافة حيث هاجموا القصور في المدينة منزلين فيها الدمار

---

(١) أنظر : Gesta Francorum, 1, 2. pp. 6-12.

(٢) Guibert, in Permoud: op. cit. pp. 31-2.

(٣) Runciman: op. cit. p. 127.

ومشعلين النيران في الأبنية العامة وقد انتزعوا الرصاص من سقوف الكنائس . . لهذا أمرهم الإمبراطور بعبور البسفور بدون تأخير . . . »[1] ، وأكدت المصادر المعاصرة فعلاً هذا السلوك السيء الذي سلكته الحملة ضد قرى المسيحيين والسكان الآمنين الأمر الذي أدى دون شك إلى تعجل ألكسيوس عبور هذه الجماعات إلى الناحية الأخرى ؛ فقد أجمع كل من ألبرت الأخيني وصاحب كتاب الفرنجة وحجاج بيت المقدس على ما ارتكبه جيش بطرس من مفاسد في المناطق التي نزلوا بها . . . وهذا يؤكد فعلاً ما ذهبنا إليه[2] . وقد أخذ معظم الكتاب المحدثين بهذا الرأي فهم يعتقدون أن الإمبراطور هو الذي تعجل عبور بطرس ورجاله إلى الناحية الأخرى أبعاداً لهم عن العاصمة البيزنطية وخلاصاً من شرورهم ومفاسدهم[3] . وأشار رنسيمان إلى أن الفوضى التي كانت عليها هذه الحملة أقنعت الإمبراطور بخطورة بقائها بالقرب من أسوار عاصمته ، بعد ارتكابهم للكثير من أعمال اللصوصية في المناطق المجاورة والقرى البيزنطية الآمنة ، ولم يتوقف نهمهم عن نزع صفائح الرصاص التي سقفت بها الكنائس ولم يردعهم شيء عن ارتكاب مثل هذه الأعمال الإجرامية[4] .

وإذا سلمنا بأن الإمبراطور قد قدم نصيحته لبطرس بالتريث وانتظار بقية القوات الصليبية في الحملة النظامية ، فلا يعني ذلك أنه أراد إبقاءه بقرب عاصمته القسطنطينية وتأخير عبوره للناحية الأخرى ، وإنما يمكن لبطرس أن ينتظر تلك الحملة النظامية فعلاً ولكن على الجانب الآخر الآسيوي أي أن نصيحة الإمبراطور

---

(١) أنظر : Guibert: in Permoud: op. cit. p. 33.

(٢) أنظر : Albert of Aix, 1, 15, pp. 283-4.
Gesta Francorum, 1, 2, p. 6.

(٣) Runciman: op. cit. I. p. 127.

(٤) Ibid. p. 127.
Guibert, in Permoud: op. cit. p. 33.

مقصورة على جعل بطرس يتريث ولا يهاجم الأتراك قبل وصول بقية القادة ، وليست خاصة بمنعه من العبور إلى الناحية الأخرى . أو لعل الإمبراطور كان موقناً بعينه الخبيرة بالشئون العسكرية – كما لاحظ مؤرخ محدث أن مثل تلك الحملة المفتقرة للنظام والانضباط لو قدر لها مباداة المسلمين بالهجوم فسوف يقضي عليها تماماً[1] ، وبهذه الدلالات يمكن فهم إشارة الكاتبة التي قد تجعل القارىء يظن أن نصيحة الإمبراطور البيزنطي تشمل الأمرين معاً تأخير العبور وتأخير مهاجمة المسلمين أيضاً . ولا يخفى على الباحث أن مجرد تفكير الإمبراطور في نقل بطرس ورجاله إلى الجانب الأسيوي لا يعني إلا أمراً واحد هو نقله إلى مسرح العمليات العسكرية ضد المسلمين ، لأنه لا يمكن التكهن بما يأتيه هذا الجيش الأهوج ولا يمكن السيطرة على تلك الأعداد الكبيرة ومنعها من ممارسة أعمالها العدوانية . أي أن الإمبراطور قدم نصيحته المشار إليها – إذا سلمنا بذلك – ليحقق في نفس الوقت ما كان يهدف إليه من إبعاد هذه القوات عن عاصمته ، ولايهمه بعد ذلك ما إذا كان هذا الجيش سيخلد إلى السكينة أم سيبدأ هجماته في الناحية الأخرى .

– ويجابهنا بعد ذلك في نص آنا كومنينا الإشارة إلى ما ارتكبه النورمان بصفة خاصة من أعمال تعسفية إذ جاء في النص : « . . . وأخيراً التحق به (بطرس) نحو عشرة آلاف محارب نورماني ، ولكنهم عادوا فانفصلوا عنه وقاموا بنهب ضواحي مدينة نيقية وإتلافها سالكين مع السكان سلوك القسوة البالغة والوحشية فقد قاموا بتقطيع بعض الأطفال الصغار إرباً وربط البعض الآخر على قطع من الخشب وشيهم على النار ، أما الكبار فقد أخضعوهم لشتى أنواع التعذيب »[2] .

وعلى الرغم من أن جنود الحملة يشتركون عموماً في القيام بهذه الأعمال الإرهابية دون أن يختص بذلك النورمان وحدهم ، فإن الكاتبة حاولت أن تؤكد اختصاص

---

(١) Runciman: op. cit. I. p. 127.

(٢) أنظر النص في : Anna Comnena: The Alexiad. p. 311.

النورمان بهذه النماذج من القسوة دون غيرهم من جنود الحملة الفرنسيين والألمان وبقية عناصر الحملة . ولا يخفى على الباحث الهدف من هذه الإشارة وذلك الاختصاص . . وهو تحميل النورمان وحدهم مغبة هذه الأعمال وإلقاء مسئولية الفشل والكارثة التي لحقت بالجيش كله على كواهلهم دون غيرهم . فقد كانت آنا تكن للنورمان رصيداً هائلاً من الكراهية وتخصهم بنوع من المقت والبغض والسبب في ذلك إنما يرجع للعداء الطويل بين الإمبراطورية البيزنطية والنورمان[1] ، وما سببه أولئك النورمان لوالدها الإمبراطور ألكسيوس بصفة خاصة من متاعب في أملاك الدولة في البلقان وفي إيطاليا فلقد وثب النورمان على أراضي بيزنطة واخترقوا حدودها في أكثر من جهة ، وقام زعيمهم روبرت جويسكارد ثم ابنه بوهيموند من بعده بمحاربة بيزنطة وإلحاق الهزائم بها أكثر من مرة وذلك في الفترة السابقة لقيام الحملة الصليبية الأولى[2] ، ومنذ اعتلاء ألكسيوس العرش صارت هجمات النورمان متسمة بالقسوة والعنف ، ولا شك أن هذه الأمور قد ألقت بظلها على مشاعر الكاتبة وهي تدون أخبار حملة بطرس ، فهي تعلم أن الفرق النورمانية كانت تؤلف جانباً من هذه الحملة ، ولسابق علمها بمدى عنف هذه الفئة بالذات وكرهها العميق لهم فقد حاولت ربما دون أن تشعر أن تلصق بهم كل النقائص وتظهرهم في صورة مقيتة بعيدة كل البعد عن الروح الإنسانية وأسس المعاملة التي ينبغي أن يعامل بها الآمنون أثناء الحروب[3] .

وقد كان سلوك العنف والقسوة الذي سلكه أفراد حملة بطرس الناسك هو السبب المباشر لتكتل الأتراك وتصميمهم على تصفية الحملة ووضع حد لشرورها

---

(١) Camb. Med. Hist. V. pp. 180-1.
Baldwin: The Crusades, I, pp. 188-9.

(٢) Gay: L'Italie Meridionole, pp. 535-7.
Camb. Med. Hist. V. p. 176.

(٣) أنظر النص في : Anna Comnena, The Alexiad. p. 311.

ولكن الكاتبة أرادت أن تجعل هذا العنف مقصوراً على سلوك النورمان فيصبحوا بذلك وحدهم مسئولين مسئولية مباشرة عن تصفية الحملة والكارثة التي لحقت بها . وبعبارة أخرى أرادت آنا أن تفرغ في هذه الإشارة كل كراهيتها للنورمان بتحميلهم مسئولية القضاء على حملة بطرس والتسبب في تصفيتها والمصير الذي آلت إليه .

وباستقراء نصوص المصادر المعاصرة الأخرى لا نجد إشارة إلى اختصاص النورمان — دون غيرهم — بهذا العنف والإرهاب ، فلقد أشار كل من ألبرت الأخيني وصاحب كتاب أعمال الفرنجة إلى السلوك السيء الذي سلكته الحملة ككل ضد السكان الآمنين وقراهم ، ولم تعين لنا فئة اختصت بهذا السلوك ولم تحدد جماعة بعينها لتخصها بممارسة هــذا الإرهاب ضد الأطفال والعزل الآمنين [1] . ومما يؤكد أن الكاتبة إنما أرادت تشويه صورة النورمان بصفة خاصة ما أشارت إليه من أن نحو عشرة آلاف نورماني التحقوا بجيش بطرس ثم عادوا فانفصلوا عنه ليقوموا بهذه المذابح الرهيبة ، ويمارسوا أعمال النهب والسلب ، ولم ترد في المصادر المعاصرة الأخرى إشارة إلى هذا الالتحاق ثم الإنفصال ، مما ينبىء أن الكاتبة عمدت إلى هذه الإشارة لتوحي بأن انفصالهم عن بقية الجيش كان بغرض القيام بهذه المذابح في غيبة بطرس وفي معزل عن بقية الفرق ، وبعيداً عن بقية القادة الذين ربما حاولوا كبح جماحهم ومنعهم من القيام بهذا الإرهاب . وعلى كل حال لا يخفى على الباحث الهدف من كل ما أشارت إليه آنا في ظل معرفتنا الدقيقة بمشاعرها نحو الغربيين بصفة عامة والنورمان منهم بصفة خاصة [2] .

ولم تقتصر آنا في إشارتها إلى النورمان على وصفهم بالقسوة والعنف وإنما وصفتهم أيضاً بالنهم للمال والشره لجمعه بطريق كريم أو غير كريم . فقد أومأت إلى أنه نظراً « لأنهم (المسلمون) كانوا يعرفون حب أولئك الغزاة للمال فقد جندوا

---

(١) راجع : Albert of Aix, 1, 15, pp. 283-4.
Gesta Francorum, 1, 2, p. 6.

(٢) Sewter: op. cit. p. 15.

اثنين من أقوى الرجال عزماً وبعثوا بهما إلى معسكر بطرس ليعلنا أن النورمان قد استولوا على نيقية وأنهم يتقاسمون الغنائم التي حصلوا عليها من المدينة »[١] ، وليس مقبولاً أن يتهم النورمان وحدهم بالرغبة في المغانم والأسلاب في الحروب ، وإنما ترغب الكاتبة بنغمتها في هذه الإشارة أن تشوه صورتهم حتى لكأنها تدمغهم وحدهم دون بقية جموع الحملة ، بالارتزاق وكأن هدفهم الأسمى هو المغانم والأسلاب ومطلبهم في كل خطواتهم هو البحث عن المال .

وعلى الرغم من آنا عادت فأشركت بقية الفئات في هذا النهم ، فقالت : « وكان لهذه القصة فعل السحر على رجال بطرس فماجوا واضطربوا لسماع كلمة (التقاسم) وكلمة (المال) ، وبدون أي تردد بدأوا يسلكون الطريق المؤدية إلى نيقية »[٢] ، إلا أن قولها بأن النورمان هم الذين بدأوا الهجوم من أجل المال فيه تأكيد بأن نهمهم يفوق نهم بقية العناصر وشراهتها للمال والأسلاب . على أن آنا قد عادت فأكدت اشتراك الغربيين عموماً في هذا النهم للمال فضلاً عن الإصرار على الفتح والغزو فقالت : « وكما قلت من قبل فإن العنصر اللاتيني يتميز في كل العصور بجشع غير عادي للثروة والمال . . . وإذا خطط اللاتين لغزو بلد فليس هناك سبب أو قوة يمكن أن تكبح جماحهم »[٣] . وواضح من هذه الإشارة كره آنا للعنصر اللاتيني الغربي واحتقارها له لشراهته للمال وحبه لجمعه في كل وقت كما هو واضح مقتها للغربيين عموماً لتميزهم بالإصرار على الغزو والفتح ، ولعل تجارب الإمبراطورية البيزنطية مع النورمان في البلقان كانت ماثلة في ذهن الكاتبة وهي تكتب هذه العبارات ، فقد روعوا الإمبراطورية البيزنطية في أكثر من مكان ، وكان

(١) Anna Comnena: The Alexiad. p. 312.

(٢) Ibid. p. 312.

(٣) Anna Comnena, The Alexiad. p. 312.

إصرارهم على اقتحام حدودها وغزو أراضيها أمراً ملفتاً للنظر[١] ، فعكست هذه الإشارة أفكار الكاتبة من خلال تجارب والدها ألكسيوس وتجارب الإمبراطورية مع أعدائها النورمان في البلقان وإيطاليا[٢] .

— ويواجهنا بعد ذلك في نص آنا قولها : « وكان رد فعل السلطان (السلجوقي) أن أرسل بعض إيلخاناته على رأس قوة كبيرة لتتعامل مع أولئك المغيرين النورمان . . » والواقع أن لفظ « إيلخان » غريب أن يرد في هذا النص ولم يكن مستعملاً لدى الأتراك السلاجقة في آسيا الصغرى إطلاقاً ، وإنما اختص به المغول وقد عرفت به أسرة مغولية استوطنت فارس ما بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين (أي السابع والثامن الهجريين)[٣] ، ولا ندري كيف تسرب مثل هذا اللفظ إلى كتابة آنا فيما يختص بسلاجقة الروم بآسيا الصغرى . وهناك لفظ « الإيلكخانية » الذي يطلق على أسرة تركية بآسيا الوسطى حكمت من القرن العاشر إلى القرن الثاني عشر الميلاديين (الرابع إلى السابع الهجريين) ، وانحدر منها أول غزاة الترك لبلاد ما وراء النهر في العهد الإسلامي . أما لفظ أمراء إيلكخانية فمن المحتمل أنه كان لقباً لأمراء الترك من المشارقة[٤] ، واستعمل لقب الخان والجمع خانية[٥] ، وهكذا كان هذا اللفظ معروفاً قبل أن تكتب آنا كتابها واستعمل لدى الترك ابتداء من القرن العاشر الميلادي . فهل كانت آنا تقصد إيلك خانات بدلا من إيلخانات وتعني بها الأمراء التابعين للسلطان[٦] . الواقع أننا لا نستطيع أن نجزم بذلك لكن من

---

(١) Camb. Med. Hist. V. p. 176.
Gay: L'Italie Meridionole. p. 535.

(٢) Gay: op. cit. pp. 536-7.
Baldwin: The Crusades. I. p. 187.

(٣) أنظر بارتولد Barthold في دائرة المعارف الإسلامية « مادة ايلخانية » .

(٤) أنظر البيهقي ص ٦٣١ (طبعة مورلي Morley) .

(٥) نفس المرجع ص ٨٩٤ .

(٦) أنظر بارتولد : دائرة المعارف الإسلامية (مادة إيلكخانية) .

المؤكد أنها كانت تقصد القواد التابعين للسلطان وتعني أن السلطان أرسل عدداً من قادته ليتعاملوا مع أولئك الغزاة ويبدو أن آنا سمعت ذلك اللفظ الوارد من الشرق ، فاعتقدت أن هذا اللفظ يمكن أن يؤدي المعنى ما دام يعني – شخصيات عظيمة في الشرق – ما دام السلاجقة قد قدموا من جوف آسيا في الشرق أيضاً ، كما ظنت أن هذا اللفظ لا بد أن يكون معروفاً لدى السلاجقة ويعني كبار القادة فلا بأس من استخدامه هنا ليؤدي المعنى ، وهنا راق لها استخدام هذا التعبير ليطلق على قادة السلاجقة الكبار .

ويبدو أن آنا اعتقدت أن مجرد استعمال كلمة « قادة » لن يعبر التعبير الصحيح ولن يؤدي الغرض تماماً ، لأنها أرادت القول بأن السلطان اهتم كثيراً بهذا الأمر فجند أكبر قادته في الجيش السلجوقي ، وحشد أعظم ما لديه من عسكريين . وهي بذلك تغالط مغالطة ظاهرة لتوحي بأن حملة بطرس الناسك جابهت تخطيطاً محكماً من جانب السلطان شخصياً وتجنيداً لأعظم قادة الجيش السلجوقي لتحقيق رغبته في وضع حد لتقدمها ، ولعلها بذلك تبرر النهاية التعسة لهذه الحملة بعد أن حصدتها سيوف الأتراك . وإذا كان لها أن تسلم بالنتيجة التي آلت إليها الحملة فلا يمكن أن تتصوّر أن ذلك كان بفعل فرقة صغيرة من السلاجقة . إذ لم يتناسب في ظنها هذا العمل الكبير مع جهود فرقة صغيرة من الجيش بل ينبغي أن يكون من تخطيط كبار العسكريين السلاجقة .

والحقيقة الواقعة غير ذلك تماماً ، فالمعروف أن السلطان قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم بآسيا الصغرى كان وقت وصول حملة بطرس الناسك يحارب في شرق شبه الجزيرة ضد أسرة تركمانية أخرى هم « آل الدانشمند » في الركن الشمالي الشرقي من آسيا الصغرى[1] ، وأنه حين علم بما ارتكبه الصليبيون من مذابح في

(١) أنظر ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٩٥ (سنة ٤٩٩هـ) ، وانظر كذلك :
Runciman: op. cit. I. p. 65.
Laurent: Byzance et les Turcs Seldjoucides. pp. 9-11.
وانظر كذلك مادة « سليمان بن قتامش » في دائرة المعارف الإسلامية : by Zettersteen

القرى الآمنة كلف فرقة صغيرة من جيشه للتعامل مع هذه الجموع الغازية ، ولم يقم بتكليف كبار قادته للقيام بذلك كما تدعي الكاتبة . فواقع الأمور ينفي ذلك : فمن ناحية كانت تدور وقتذاك حرب بينه وبين أعداء آخرين لا تسمح بالاستغناء عن جهود أحد من كبار القادة ومن ناحية أخرى لم يكن هناك ما يوحي بخطورة جموع الصليبيين على أمن سلطنة سلاجقة الروم وسلامتهم[١] . فلا يمكن أن يكون أولئك الرعاع الذين روعوا الآمنين وقتلوا النساء والأطفال وارتكبوا كثيراً من المخازي ، محاربين بالمعنى المعروف ، يتطلب الأمر حشد كبار القادة للقائهم . وهكذا لم توفق الكاتبة في استعمال هذا اللفظ ولا إلى ما كانت ترمي إليه من استخدامه ، فلم يكن اهتمام السلطان بحملة بطرس على الصورة التي صورتها الكاتبة ، ولم يوقف السلاجقة مشروعاتهم ويحشدوا أكبر ما لديهم من فرق ويجندوا أعظم ما عندهم من قادة للقاء تلك الحملة ، وإنما أرسلوا فرقة صغيرة من الجيش نجحت في نصب كمين لتلك الحملة ثم ما لبث أن حولتها إلى كومة من الأشلاء قرب نيقية[٢] .

— وآخر ما يواجهنا في نص آنا قولها : « ولكثرة من قتل من اللاتين والنورمان بسيوف (الاسماعيلية) . . . » ولفظ (الاسماعيلية) هنا غريب أيضاً ولا ندري لماذا استعملته آنا للدلالة على الأتراك المسلمين ، فمن ناحية لم يكن الأتراك السلاجقة يعتنقون المذهب الاسماعيلي أو يميلون إليه حتى يمكن أن نقول أنها نسبتهم إلى مذهبهم وإنما كانوا من أهل السنة المتحمسين ، ومن ناحية أخرى لم يكن لأتباع المذهب الاسماعيلي نشاط في آسيا الصغرى حتى يمكن أن نبرر استعمال الكاتبة لهذا اللفظ دلالة على المسلمين في هذه البقاع[٣] ، بل لم يكن نشاط الاسماعيلية قد تبلور بعد في بلاد الشام . فالمعروف أن نشاط الاسماعيلية الباطنية قد ظهر في بلاد فارس حوالي

---

(١) Runciman: op cit. p.77, p. 177.

(٢) Ibid. p. 177.

(٣) أنظر مادة « الإسماعيلية » في دائرة المعارف الإسلامية by Cl. Huart

نهاية القرن الحادي عشر الميلادي ، ثم انتقل هذا النشاط إلى بلاد الشام بعد ذلك حيث مارس الاسماعيلية الباطنية دورهم في عصر الحروب الصليبية من قلاع منبثة في سورية منذ أوائل القرن الثاني عشر الميلادي تقريباً ، وشاركوا في الحروب التي دارت بين المسلمين والصليبيين بإيجابياتهم أحياناً وسلبياتهم أحياناً أخرى[١] . وبعبارة أخرى إذا كانت الكاتبة تقصد بلفظ الإسماعيلية فرقة الإسماعيلية ، فإنها لم توفق تماماً في ذلك وجانبها الصواب في استخدام هذا التعبير ، إذ لم يكن لأتباع هذا المذهب وجود في آسيا الصغرى .

ولكن ربما كانت تقصد بلفظ الإسماعيلية « أبناء اسماعيل » وتعني بهم العرب المسلمين ، وإن صح ذلك فإنها غير موفقة أيضاً في استخدام هذا التعبير إذ لم يكن الأتراك من العرب ، وإن كانوا مسلمين ولا يصح أن يعتبروا من أبناء اسماعيل وهو تعبير ضيق لا يندرج تحته كل المسلمين من مختلف السلالات وإنما يعتبر اسماعيل أباً للعرب الذين كانوا في شمال الجزيرة العربية ، ويذهب علماء الأنساب عند العرب إلى أن اسماعيل هو جد العرب المستعربة الذين يرجعون بنسبهم إلى عدنان[٢] . وهكذا كان اسماعيل ليس أباً لكل العرب ولا يمكن أن تكون الكاتبة موفقة إذا كانت تقصد بالإسماعيلية أبناء اسماعيل . وأغلب الظن أنها كانت تقصد بلفظ الإسماعيلية — المسلمين المحاربين في آسيا الصغرى — دون أن تعني سلالة بعينها ودون أن تقصد التخصيص ، وما دام لفظ الإسماعيلية وارداً من الشرق ويوحي بأن معناه المسلمون ، فلا مانع من استخدامه للدلالة على الأعداء الرابضين في آسيا الصغرى الذين دأبوا على محاربة بيزنطة ثم أجهزوا على حملة بطرس الناسك . وأعتقد أن الكاتبة كانت تعمد إلى استخدام تعبيرات وألفاظ غير تقليدية في كتابها لمحاولة إظهار نفسها بمظهر العارفة بالشعوب خارج حدود بيزنطية — بحكم مكانتها

---

(١) أنظر : الأنصاري الدمشقي : نخبة الدهر ص ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢١١ ، ٢٣٣ .
ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٤٨ .
ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ٤٠ .

(٢) أنظر : فنسنك A. J. Wensinck دائرة المعارف الإسلامية « مادة إسماعيل » .

في القصر وقربها من مصادر المعلومات والأخبار ـ فضلاً عن محاولة جذب القارىء البيزنطي ووضع مصطلحات وألفاظ غريبة عليه لإقناعه بعلم الكاتبة ومعرفتها بكل شيء دون النظر إلى مدى مطابقة هذه الألفاظ للواقع والحقيقة . فالقارىء البيزنطي لن يحقق في هذه الألفاظ بقدر ما يروق له نطقها واستخدامها وما توحي به من دلائل . وفي ضوء دلك يمكن فهم هذه الألفاظ المتسربة إلى كتاب آنا كومنينا ، والتي حرصت على ذكرها لإعطاء كتابتها مذاقاً خاصاً يروق للقارىء الغربي بصفة عامة دون أن يتوقف ليبحث في هذه المصطلحات والألفاظ وإنما يكتفي بما تدل عليه من مسميات .

وإذا لم تكن آنا قد وفقت في بعض جوانب ما تناولته من حملة بطرس الناسك فإنها في الناحية الأخرى نجحت في تصوير مدى الكارثة التي حلت بهذه الحملة ، وأرجعت ذلك إلى عدة عوامل صحيحة إلى حد بعيد أولها : الشره للمال والمغانم الذي أبداه جنودها لحرصهم على الثروة وجمع الأسلاب . وثاني هذه العوامل الغوغائية وعدم النظام الذي أبدته الحملة في سيرها وهجومها نظراً لافتقار جنودها للانضباط العسكري بحكم كونهم من الرعاع والعامة ورقيق الأرض الذين لا دراية لهم بالحرب ولا معرفة لهم بنظمها وتقاليدها . وثمة عامل ثالث حاولت فيه آنا أن تلقي بالتبعة فيه على اللاتين نظراً لعنادهم وجشعهم وحبهم للغزو الفتح إذ أومأت إلى أن اللاتين إذا خططوا لغزو بلد فليس هناك قوة يمكن أن تكبح جماحهم فضلاً عن أنهم على حد قول بطرس الناسك نفسه : « لم يكونوا مطيعين وانساقوا وراء أهوائهم الشخصية » .

ومع نجاح آنا في رسم صورة دقيقة لحجم الكارثة التي نزلت بحملة بطرس فإنها لم تستطع هي أن تخفي نبرة الألم والحزن في كتابتها وذلك على الرغم مما بدا من كرهها للاتين والنورمان فيلحظ القارىء أسفاً وحزناً شديدين في السطور التي تحدثت فيها عن حصد سيوف الأتراك لجنود هذه الحملة حتى أنها لتكاد تستدر الدموع خلال حديثها : « ولكثرة من قتل من اللاتين والنورمان جمعت بقايا

«الجثث المقتولة في كومة هائلة ، بل جبلا كبيراً له ارتفاع وعمق واتساع هائل » ويبدو أنها نسيت كل شيء وهي تصور نتائج هذه المذبحة فلم تعد تذكر إلا أن أولئك القتلى كانوا من المسيحيين الذين قتلهم المسلمون ، ولهذا فقد اختفت خلال تصويرها لخاتمة الحملة التعسة نوازع كرهها ولم تذكر سوى أن القتلى كانوا ضحايا لحماستهم الدينية وضحايا لجهلهم وعيوبهم كما أنهم كانوا حصاد سيوف كريهة لدى بيزنطة ولدى العالم المسيحي بصفة عامة ، ولهذا فقد أسفت الكاتبة أخيراً وحزنت حزناً شديداً أطل من بين سطورها وفي ثنايا عباراتها ربما دون أن تشعر .

وفضلاً عن ذلك كله فقد أمدتنا آنّا في هذه الرواية بأسماء لأماكن وقلاع ومدن في آسيا الصغرى لا نشك مطلقاً في معرفتها بها لقربها من العاصمة البيزنطية من ناحية ثم لسابق خضوعها للامبراطورية البيزنطية من ناحية أخرى مثل هيلينوبوليس Helenopolis والدراكون Drakon وغيرها من الأسماء ، ونجحت آنا في تصوير تحركات حملة بطرس بين هذه الأماكن والقلاع مع الاهتمام بتحركات الفرقة النورمانية التي كانت سبباً ـ في رأيها ـ فيما حدث من كارثة للحملة بأسرها .

وصفوة القول أنه إذا كانت آنا كومنينا قد تناولت حملة بطرس الناسك وفي عقلها وقلبها وفكرها نوازع قد تؤثر على آرائها في هذه الحملة وتخرجها قليلاً عما ينبغي أن تكون عليه كاتبة محايدة ، فإنها من ناحية أخرى نجحت في تصوير وقائع تلك الحملة تصويراً يكاد يكون دقيقاً لا سيما في وصف النهاية التي انتهت إليها . وإذا كانت آنا كومنينا قد وضعت نصب عينيها تبرئة والدها من كل ما قد ينسب إليه من مسئولية في هذه الوقائع ، فإنها برغم ذلك لم تستطع أن تؤكد هذه البراءة بالقرائن والأدلة بل سهلت على قارئها فهم ما اتخذه والدها من مواقف تجاه هذه الحملة وجعلت هذا القارىء يصل في النهاية بيسر وسهولة إلى إلقاء المسئولية ولو جزئياً على والدها عن مصير هذه الحملة ، وبذلك لم يستطع حب آنا لوالدها أن يحجب عنا الحقيقة ، فباستقرائنا لنصوص المصادر التاريخية المعاصرة الأخرى أمكننا فهم ما حجبته عنا من حقائق وسد ما تركته في روايتها من ثغرات .

د . محمد محمد مرسي الشيخ